«العوسج»... سيرة المجتمع القطري قبل النفط وبعده

10 - أبريل - 2026

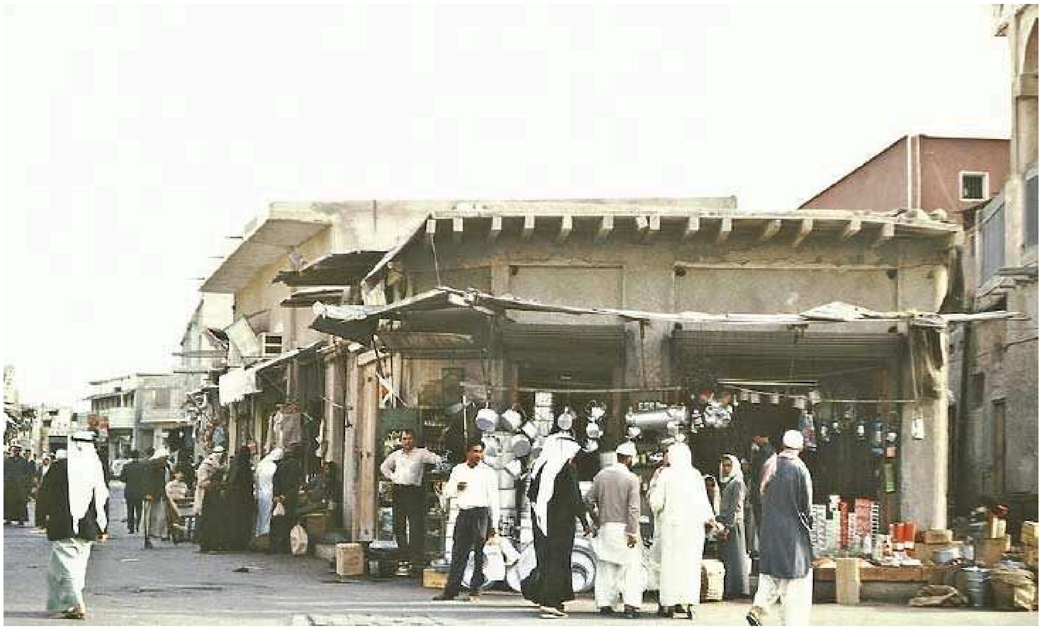

في السنوات الأخيرة، باتت كتب الذكريات والسير الشخصية تمثل مدخلاً مهماً لفهم تاريخ المدن الخليجية وتحولاتها الاجتماعية. فالتاريخ الرسمي غالباً ما يركز على القرارات السياسية الكبرى، أو مسار بناء الدولة الحديثة، لكنه يترك مساحات واسعة من الحياة اليومية خارج السرد. هنا تحديداً تكتسب الذاكرة الفردية قيمتها، إذ تتيح لنا قراءة تاريخ الخليج من زاوية مختلفة: تفاصيل البيوت القديمة، وأنماط العمل قبل النفط، والعلاقات بين العائلات، وتحولات الأحياء، وبدايات التعليم والعمل الحديث. إنها مواد ثرية تسمح بفهم كيف تغيّرت المدن الخليجية من بلدات ساحلية صغيرة إلى مراكز حضرية حديثة خلال عقود قليلة.

ومع ذلك، فإن حضور هذا النوع من الكتابة ليس متساوياً في كل بلدان الخليج. فمدن مثل جدة أو الرياض في السعودية حظيت باهتمام أكبر نسبياً في أدبيات الذاكرة والسير الشخصية، حيث صدرت عنها مذكرات ودراسات متعددة توثق الحياة الاجتماعية والتحولات العمرانية والثقافية. أما مدن أخرى مثل الدوحة أو أبوظبي، فالمصادر التي تقدم روايات شخصية مفصلة عن المجتمع فيها لا تزال محدودة نسبياً، على

الرغم من التحولات الكبيرة التي شهدتها خلال القرن العشرين.

لهذا يكتسب الاطلاع على مذكرات علي خليفة الكواري، الصادرة في ثلاثة أجزاء كبيرة تحت عنوان «العوسج: سيرة وذكريات»، أهمية خاصة. فهذه المذكرات لا تقدم سيرة شخصية فحسب، بل توفر أيضاً فرصة نادرة لفهم ملامح الحياة الاجتماعية في قطر في السنوات التي سبقت التحولات الكبرى التي أحدثها النفط لاحقاً، ثم الغاز في مراحل لاحقة، بما يسمح برؤية المجتمع القطري وهو ينتقل تدريجياً من عالم الاقتصاد التقليدي، إلى عالم الدولة الحديثة.

من يقرأ هذه المذكرات يلاحظ منذ الصفحات الأولى أن الكواري لا يكتفي بسرد أحداث حياته، بل يحرص على تسجيل ملاحظات دقيقة عن المجتمع الذي عاش فيه. فالسرد ينتقل باستمرار بين التجربة الشخصية ووصف البيئة الاجتماعية المحيطة: الأحياء، والمدارس، والعمل، وعلاقات الناس ببعضهم بعضا.

يصف الكواري الدوحة في خمسينيات القرن العشرين مدينة صغيرة محدودة الاتساع. البيوت متقاربة، وغالباً ما تُبنى من الطين أو الحجر البحري، وتفصل بينها أزقة ضيقة تتقاطع بين الأحياء. وكان الحي (الفريج) يشكل وحدة اجتماعية قائمة بذاتها، إذ تسكنه عائلات تربطها علاقات قرابة أو مصاهرة، لذلك كانت الحياة اليومية تدور في نطاق الحي: الأطفال يلعبون في الأزقة، والرجال يجتمعون في المجالس، والنساء يتبادلن الزيارات بين البيوت.

هذه البنية الاجتماعية جعلت المجتمع القطري آنذاك شديد الترابط، لكنه في الوقت نفسه كان مجزأً إلى وحدات صغيرة نسبياً. فكل فريج أو قرية كان يحمل طابعاً خاصاً به، وتبقى العلاقات بين هذه الوحدات محدودة نسبياً مقارنة بما سيحدث لاحقاً مع توسع المدن. اقتصادياً، كانت الفرص قليلة. يذكر الكواري أن كثيراً من الأسر كانت تعتمد على التجارة الصغيرة، أو على أعمال مرتبطة بالبحر. وكانت آثار انهيار تجارة اللؤلؤ لا تزال حاضرة في ذاكرة الناس، إذ فقدت كثير من العائلات مصدر

دخلها الأساسي بعد تراجع الطلب العالمي على اللؤلؤ الطبيعي.

في هذه البيئة محدودة الخيارات، ظهر النفط بوصفه فرصة اقتصادية جديدة. يروي الكواري، أنه ترك المدرسة في منتصف الخمسينيات ليلتحق بالعمل في شركة النفط في منطقة دخان، وهو قرار لم يكن استثنائياً في ذلك الوقت. فكثير من الشباب كانوا يتركون الدراسة لأن العمل في شركة النفط كان يوفر دخلاً ثابتاً يفوق بكثير ما يمكن الحصول عليه في الأعمال التقليدية.

الحياة في مدينة نفطية

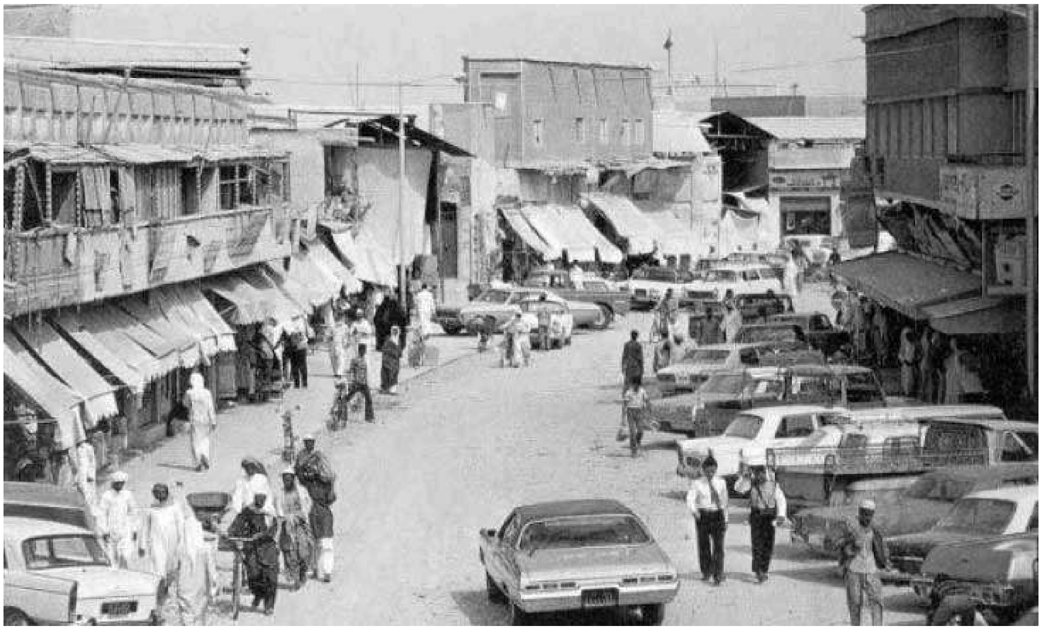

تقدم المذكرات وصفاً تفصيلياً للحياة في دخان، التي تبعد حوالي 80 كيلومتراً عن العاصمة الدوحة، كانت المنطقة أشبه بمدينة صناعية جديدة ظهرت فجأة في الصحراء. سكن العمال في معسكرات بسيطة، تضم غرفاً متجاورة ومرافق مشتركة. وكان يوم العمل يبدأ في ساعات الصباح الأولى، حيث يتوجه العمال إلى مواقع الحفر أو الصيانة أو النقل. لكن الحياة في تلك المعسكرات لم تكن مجرد عمل. فقد أنشأت الشركة مرافق اجتماعية للعمال، مثل النادي وسينما الشركة. ويذكر الكواري أن هذه الأماكن كانت تمثل نافذة على العالم الخارجي بالنسبة للشباب القطريين، الذين قدموا من قرى ومدن صغيرة.

في النادي كان العمال يجتمعون بعد انتهاء العمل، يتحدثون عن أخبار البلاد، أو يقرأون الصحف والمجلات العربية التي بدأت تصل إلى المنطقة. هذه المجلات كانت تنقل إليهم نقاشات سياسية وثقافية كانت تدور في العالم العربي آنذاك، خصوصاً في مصر وسوريا. أما السينما فكانت تجربة جديدة تماماً لكثير من العمال. فقد شاهدوا للمرة الأولى أفلاماً مصرية وأجنبية، وتعرفوا من خلالها إلى أنماط حياة مختلفة. هذه التجارب الثقافية الصغيرة كان لها تأثير مهم في توسيع آفاق الجيل الشاب.

كذلك كان هناك عمال من عمان وعدن والهند وإيران، إضافة إلى الموظفين البريطانيين الذين كانوا يديرون كثيراً من الأقسام الفنية والإدارية. هذا الاختلاط خلق وضعاً اجتماعياً جديداً لم يكن مألوفاً في المجتمع القطري التقليدي. ففي مواقع العمل كان القطريون يعملون جنباً إلى جنب مع عمال من ثقافات مختلفة، ويتعلمون منهم مهارات تقنية جديدة. لكنهم كانوا يلاحظون أيضاً الفوارق الواضحة بين ظروف العمال المحليين وظروف الموظفين الأجانب، الذين كانوا يتمتعون بسكن أفضل ومرافق خاصة. إلى جانب مواقع العمل في النفط، لعبت المدارس دوراً مهماً في التحولات الاجتماعية، تصف المذكرات تأثير المعلمين العرب الذين قدموا إلى قطر في تلك المرحلة، إذ جاء كثير منهم من مصر وسوريا وفلسطين، وجلبوا معهم كتباً وصحفاً وأفكاراً سياسية كانت منتشرة في العالم العربي. كان الطلاب يتعرفون من خلال هؤلاء المعلمين إلى الأدب العربي الحديث، وإلى النقاشات الفكرية حول القومية العربية والتحرر الوطني، ولذلك أصبحت المدرسة مكاناً مهماً لتشكل وعي الجيل الجديد، ليس فقط على المستوى التعليمي، بل أيضاً على المستوى الثقافي والسياسي.

أحياء جديدة في الدوحة

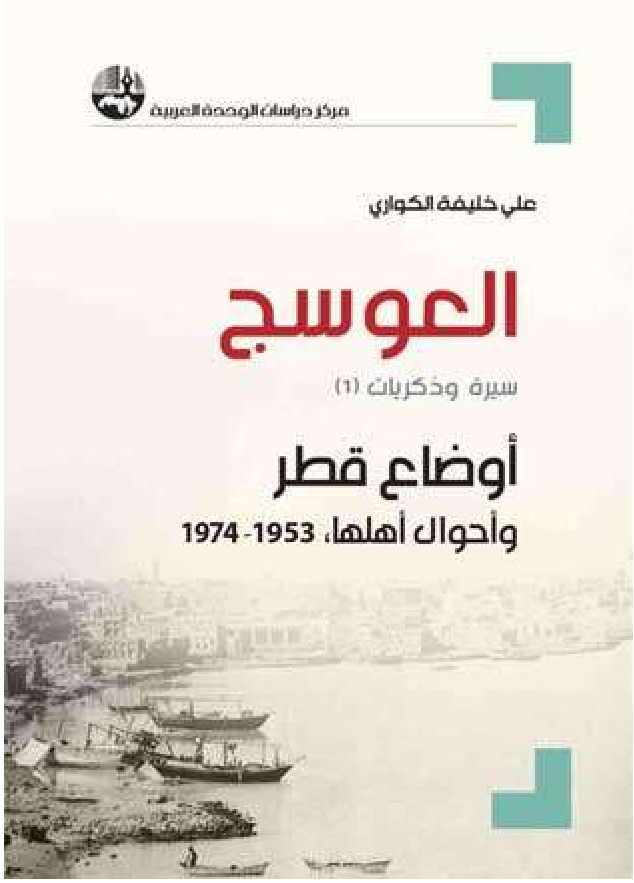

مع توسع الدوحة في الستينيات بدأت تظهر أحياء جديدة مثل حي أم غويلينة، الذي يصفه الكواري بأنه مثال على التحول الاجتماعي الذي شهدته المدينة. في هذا الحي سكنت عائلات من خلفيات مختلفة، كثير منهم موظفون أو عمال في الشركات الحديثة. في مثل هذه الأحياء لم يعد الانتماء القبلي هو الرابط الوحيد الذي ينظم العلاقات الاجتماعية. فالجيرة اليومية، والعمل المشترك، وتشارك الأطفال في اللعب في الشوارع، كلها عوامل أسهمت في بناء علاقات اجتماعية جديدة تتجاوز حدود الحي التقليدي، لكن هذه التحولات لم تكن خالية من التوترات. فمع توسع صناعة النفط وارتفاع العائدات المالية بدأت تظهر تدريجياً تفاوتات واضحة في مستويات الدخل والمعيشة داخل المجتمع القطري. ففي السنوات الأولى من الاقتصاد النفطي، لم يكن توزيع العوائد متوازناً بين مختلف فئات المجتمع. فبينما كان بعض الموظفين يحصلون على رواتب أعلى ومساكن أفضل، كان كثير من العمال القطريين يعيشون في معسكرات بسيطة بالقرب من مواقع العمل،

ويعتمدون على دخل محدود نسبياً، قياساً بما بدأت تدره صناعة النفط من أموال. كما أن الفوارق لم تكن تقتصر على العمال المحليين وحدهم، بل كانت تظهر أيضاً في العلاقة بين العمال القطريين، والموظفين الأجانب، خصوصاً البريطانيين الذين كانوا يشغلون المناصب الفنية والإدارية العليا في شركات النفط. فقد كان هؤلاء يعيشون في مساكن منفصلة ومجهزة بخدمات أفضل، ولديهم مرافق اجتماعية خاصة، ما جعل الفجوة الاجتماعية بين مستويات العمل المختلفة أكثر وضوحاً في نظر العمال المحليين. هذه الفوارق ساهمت في خلق شعور متزايد لدى بعض العمال بضرورة تحسين أوضاعهم. ففي أواخر الخمسينيات شهدت شركات النفط موجة من الاحتجاجات والإضرابات العمالية، كان هدفها المطالبة بتحسين الأجور وظروف السكن والعمل. لم تكن هذه الاحتجاجات مجرد مطالب اقتصادية فحسب، بل كانت تعبيراً مبكراً عن إدراك العمال أن المجتمع القطري بدأ يدخل مرحلة جديدة تتطلب إعادة النظر في طبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية داخل البلاد.

وفي الوقت نفسه، كانت التغيرات الاقتصادية السريعة تخلق نوعاً من القلق الاجتماعي، فالمجتمع الذي كان حتى وقت قريب متقارباً في مستوى المعيشة بدأ يشهد فروقاً واضحة بين فئاته، ما كان يثير نقاشات داخل المجالس وبين العمال والطلاب حول العدالة الاجتماعية ومستقبل المجتمع في ظل الاقتصاد النفطي المتنامي.

من خلال هذه التفاصيل الصغيرة، من حياة العمال في دخان، إلى المدارس الجديدة في الدوحة، إلى الأحياء الحديثة التي بدأت تظهر في المدينة، تقدم مذكرات الكواري صورة دقيقة عن مجتمع يعيش تحولاً عميقاً. فخلال عقدين فقط، من الخمسينيات وحتى السبعينيات، تغيرت بنية المجتمع القطري بصورة كبيرة. فالمجتمع الذي كان يعتمد على الاقتصاد البحري التقليدي بدأ يتحول إلى مجتمع مديني حديث، يقوم على النفط والتعليم والعمل في المؤسسات الحديثة.

ولهذا تبدو هذه المذكرات وثيقة اجتماعية نادرة، فهي لا تسجل فقط

تجربة فرد، بل تقدم أيضاً شهادة حية على مرحلة تأسيسية في تاريخ قطر، حين كانت المدن الخليجية الصغيرة تعيد تشكيل نفسها بسرعة تحت تأثير النفط والتحولات الاقتصادية الكبرى.

كلمات مفتاحية

علي خليفة الكواري | قطر | محمد تركي الربيعو

اترك تعليقاً

لن يتم نشر عنوان بريدك الإلكتروني. الحقول الإلزامية مشار إليها بـ *

التعليق *

الاسم *

البريد الإلكتروني *

إرسال التعليق

اشترك في قائمتنا البريدية

أدخل البريد الالكتروني *

اشترك

About us / حولنا
Advertise with us / أعلن معنا
أرشيف النسخة المطبوعة

أرشيف PDF

النسخة المطبوعة
سياسة
صحافة
مقالات
تحقيقات
ثقافة
منوعات
لايف ستايل
اقتصاد
رياضة
وسائط
الأسبوعي

جميع الحقوق محفوظة © 2026 صحيفة القدس العربي

adberries